

توسّع الدّولة العثمانية في الخليج

في القرن إسماعيل وطلوع القرن الحادي عشر الهجري

بقلم : ابراهيم خوري

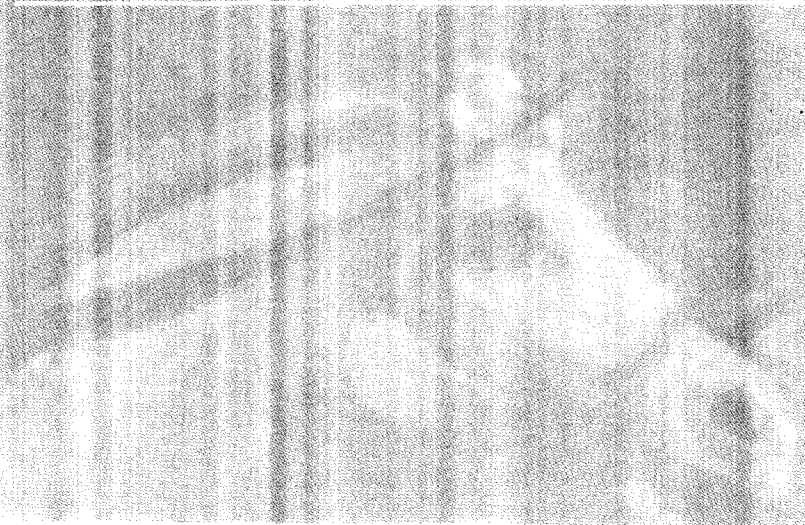
الحقبة البرتغالية ٩٠٤ - ١٠٣٥ هـ • ١٤٩٨ - ١٦٣٥ م

وانتهت باحتلال الانجليز للعراق في الربع الاول من القرن العشرين (١٩١٤ - ١٩١٨) . فدامت اربعة قرون تقريبا ، وتنوّعت ، فمنها الصلات الدينية . ومنها العلاقات الثقافية والعلمية والحضارية والسياسية . ومنها ايضا وحدة

بدأت الصلات التاريخية المباشرة بين الخليج العربي والدولة العثمانية بتقديم راشد بن مغامس مفاتيح البصرة الى السلطان سليمان القانوني في اواخر فصل خريف سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م ،



العثمانيون يسيطرون على البلاد العربية



٨٠٥ هـ / ١٤٥٢ م) واعادوا تكوين
امبراطوريتهم فاحتلوا القسطنطينية
(٨٥٧ هـ / ١٤٠٢ م) في عهد محمد
الثاني الفاتح ، وتوالى توسعهم في
البلقان واوروبا وجزر البحر المتوسط .
وانتصروا على الصفويين في كردستان
(جالديران : ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م)
وقضوا على دولة المماليك في سوريا
(مرج دابق : ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م)
وفي مصر (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) في عهد
سليم الاول . واحتلوا العراق
(٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م) في عهد سليمان

المصالح الاقتصادية بين عرب جزيرة
العرب عامة وعرب الخليج خاصة وبين
العثمانيين .

أ . سيطرة الدولة العثمانية
على منافذ تجارة المرور
الدولية بين بحر الهند والبحر
المتوسط :

ففي غضون فترة قصيرة جدا تقل
عن ربع قرن ، نهض العثمانيون من
كبتهم بعد تلقيهم ضربة قاصمة من
تيمور لنك في معركة انقرة سنة

القانوني .

والبرتغالية ومحفوظات مدن البندقية وجينوة ومرسيلية خاصة .

وكانت تجارة تلك الاصناف تدرّ ارباحا طالة على منتجيتها وناقليها والمتعاملين بها وعلى السلطات السياسية القائمة في الاماكن التي تمرّ بها . وسادت قواعد سلوك في التعامل الحرّ بها ، كرّستها اعراف تجارية رضي بها الشرق ، وقبل بها الغرب ، وتقيد بها العرب . فبنيت العلاقات الاقتصادية الدولية على اسس ثابتة ودائمة .

وكان التجار يسلكون طريقين عربيين : طريق الخليج العربي الى البصرة بتفرعاتها ، واهمّها بغداد فحلب او دمشق فاحد موانئ البحر المتوسط ، وطريق البحر الاحمر بتفرعاتها ، واهمّها الانطلاق من عدن الى جدّة فالسويس فالقاهرة فالاسكندرية .

ج . تهديد البرتغاليين وطريق الاطلسي وتجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط :

لكن طرأت احداث عالمية خطيرة جدا اثّرت في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط . فقد فتح البرتغاليون طريقا ثالثة ، وحاولوا جهد المستطاع حصر حركة التبادل بين الشرق والغرب فيها وحدها ، فهذّوا مصالح العرب والعثمانيين

وبذلك سيطر العثمانيون على منافذ تجارة المرور الدولية من بحر الهند الى البحر المتوسط في الاتجاهين ، عن طريق الخليج العربي وعن طريق البحر الاحمر .

ب . سيطرة العرب على طرق تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط

اما عرب الخليج والبحر الاحمر ، فقد قاموا بلا منازع ، على مرّ العصور ، ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، اي على مدى ستة واربعين قرنا ، بدور الوسيط في التبادل التجاري في العالم المكتشف والمعروف آنذاك ، بين سواحل بحر الهند والصين وبين سواحل البحر المتوسط ، وفي الاتجاهين : من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق .

وتنوّعت السلع المتبادلة تنوعا كبيرا ، قديما وحديثا ، ولم تقتصر ابدا على التوابل ، بل شملت اصنافا كثيرة اشار اليها باسمائها كتاب الطواف حول البحر الاحمر في القرن الاول الميلادي ، وكتاب التبصر بالتجارة للجاحظ في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وكتاب ثغر عدن لبامخرمة في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي . وتحدثت عنها شتى الوثائق العربية والهندية

ثانيها : فشل العثمانيين في حماية المصالح الاقتصادية المشتركة بينهم وبين العرب .
ثالثها : نجاح عرب الخليج في ابقاء العرب وسطاء حتميين في تجارة المرور بين بحر الهند والبحر المتوسط .

هـ . اقسام البحث

ويتجلى هذا الواقع التاريخي بوضوح في استعراضنا :

- ١ - القوى العالمية والمحلية الفاعلة في تجارة المرور في الخليج العربي .
 - ٢ - والتوسع العثماني في الخليج العربي واثره في تجارته المرور في الخليج العربي .
 - ٣ - واستمرار وصول السلع الى الخليج العربي وشحنها الى البحر المتوسط او الى بحر الهند ودام هذا الواقع التاريخي طيلة القرن السادس عشر وفي الربع الاول من القرن السابع عشر .
- ويقتصر تحليلنا على هذه الحقبة التي نسميها حقبة الفتوحات البرتغالية ، او الحقبة البرتغالية باختصار ، التي اعقبتها حقبة اخطر منها بكثير ، هي الحقبة الهولندية الانجليزية الفرنسية الخارجة عن موضوعنا .

الاقتصادية تهديدا سافرا ومباشرا ، ادى الى نشوب نزاع مسلح متقطع بينهم وبين المعتدى عليهم ، دام قرنا وربع قرن (٩٠٤هـ/١٤٩٨ م - ١٠٣٥هـ/١٦٢٥ م) ، أي من وصول داغاما الى الهند حتى طرد البرتغاليين من جزيرة هرموز ، وانتهى باقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي والبحر الاحمر . وبقي الطريقان العربيان عاملين طيلة مدة النزاع ، وسالكن حتى الربع الاول من القرن السابع عشر .

د . خصائص الصراع العربي العثماني البرتغالي على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والمتوسط :

اذن امتدّ الصراع بين العرب والعثمانيين والبرتغاليين على تجارة المرور الدولية بين بحر الهند والبحر المتوسط على زمن طويل جدا . وتميّز بثلاثة احداث كبرى :

أولها : فشل البرتغاليين في تحويل تجارة المرور عن مسارها التقليدي الى الطريق الاطلسية وبالتالي فشلهم في ضرب المصالح الاقتصادية العربية في الخليج العربي وفي البحر الاحمر .

القسم الأول

القوى المحلية والعالمية الفاعلة في تجارة المرو في الخليج العربي

بين عرب الخليج والدولة العثمانية .

وهؤلاء الفرقاء هم مملكة هرموز في الخليج ، والصفويون في فارس والعراق والماليك والعثمانيون على سواحل البحر المتوسط ، والبرتغاليون في الهند وبحر العرب والخليج العربي .

مملكة هرموز العربية

فمملكة هرموز سلطنة عربية ، كانت تشمل في القرن السادس عشر جزر الخليج العربي وسواحل من الاحساء وسيراف الى رأس مسندم ، وساحل عمان من رأس مسندم الى رأس الحد ويمكن بلا مغالاة اعتبارها بندقية العرب .

وتأسست مدينة هرموز في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على ساحل مكران ، شرقي بندر عباس ، على بعد ٣٠ ميلا منه . لكن حوالي ١٣٠٠ م ، هددتها غارات التتار فانتقلت الى جزيرة جرون (اورغانا عهد نيارخس) على مسافة ١٢ ميلا تقريبا الى الجهة الغربية وعلى

لا يمكن عزل النشاط التجاري في الخليج العربي عن التأثير الدولي القريب منه - أو حتى البعيد عنه أحيانا ، ولا عن ارادة اهل الخليج انفسهم . فلهؤلاء مصالح اقتصادية مباشرة وأساسية بالتبادل القائم على ارضهم أو المار عبر مياههم باتجاه البصرة أو باتجاه عدن فالبحر الاحمر . وللصفويين في فارس والعراق ، وللماليك في سوريا ومصر ، أو من يحل محلهم في المستقبل ، مصالح مماثلة بحكم سيطرتهم على منافذ طريق الخليج على البحر المتوسط . وللبرتغاليين ايضا نفس المصالح بعد سيطرتهم على بعض موارد التجارة الدولية وعلى بعض مسالكها في بعض انحاء سواحل الهند وفي بعض انحاء بحر العرب ، وبعد نجاحهم الجزئي والمؤقت بدخول الخليج العربي والبحر الاحمر .

ولم يعقد بين الفرقاء المعنيين اي اتفاق ينظم مصالحهم ، ويدراً مضاعفات تناقضها فظلت متصارعة ، تثير الحروب بينهم ، وتعقد الصلات

التجار الاثرياء برئاسة سلطانها . وكانت تابعة لها مسقط وقلعات وصحار وخورفكان وجلفار والقسم والبحرين والقطيف وغيرها .

وقد وصفها بدقة ووصف نشاطها الفريد ماهوان في كتابه «الكامل في وصف سواحل المحيط» المنشور سنة ١٤٥١ بعد تداوله مخطوطا منذ عام ١٤٣٤ . كذلك فعل دوارته بريوسة سنة ١٥١٧ . واعطى احمد بن ماجد صورة حسية عن اهميتها ايضا .

اذن كانت هرموز بندر مرور وسوق بيع وشراء سلع بلدان بحر الهند وبلدان البحر المتوسط على حد سواء . بالتالي ، كل ما يعرقل وصول البضائع اليها من الشرق او الغرب ، يؤثر في التجارة العالمية ، ويلحق الضرر بمصالحها الاقتصادية الحيوية . ومن هنا يتضح خطر وجود البرتغاليين في الجنوب على نشاطها ، وخطر وجود الصفويين والعثمانيين في الشمال والشمال الغربي البعيد عليه .

الصفويون في فارس والعراق

توالت الاحداث العالمية بسرعة في فارس والعراق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . واجتاحتها قبائل مغولية وتركمانية لم تستطع اي منها ان ترسخ اقدامها فيهما مدة طويلة .

من هذه القبائل الجلائر . وهم سلالة مغولية زعيمها حسن بزرگ او

بعد خمسة اميال من الشاطيء . ثم خضعت اسميا ونظريا لشاهرخ ميرزا (١٤٠٥ - ١٤٤٧) ، ودفعت له اتاوة . الا انها كانت عمليا مستقلة وقوية ماليا وعسكريا . ويمتد نفوذها على مائة ميل حولها . وكانت مركزا تجاريا كبيرا ، تسيطر على النشاط التجاري الدولي البحري مع الشرق الاقصى والهند ، والبري مع خراسان وفارس والعراق . وقد ازدهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدهارا لا مثيل له . فكانت ترسو في بندرها ٣٠٠ سفينة في آن واحد ، ويقطن فيها ٤٠٠ تاجر غريب ، يتاجرون بالحريز واللالآء ، . والحلي والتوابل على وجه الخصوص . وتتعامل هرموز مع جزيرة العرب وكمباية وكاليكوت وشيول ودابول وبنجالة ، وفارس وعدن والقاهرة والاسكندرية والصين والعراق .

ويجلب اليها من الشرق التوابل والعقاقير والحجارة الكريمة وسلع اخرى ، لا سيما الفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والفلفل الطويل والعود والصندل والبلسم والتمر الهندي والزعفران الهندي وشمع العسل والحديد والسكر والارز وجوز الهند واليواقيت والخزف والميعة . وتحمل منها السلع الواردة اليها من جزيرة العرب ومصر وبلاد الشام واوروبا .

ويدير شئونها مجلس مؤلف من

الشيخ حسن الجلائري ، حكمت العراق من سنة ١٣٣٩ الى ١٤١١ ، واتخذت بغداد عاصمة لها . وانتزع ثاني سلاطينها المدعو اويس بن حسن بزرگ ، تبريز واذربيجان من القبائل الذهبية ، وضم الموصل وديار بكر الى دولته .

ومنها ايضا القبائل التركمانية ، المعروفة باسم قرة قويونلو او الخروف الاسود ، التي زحفت على الجلائر من منطقة بحيرة وان ، واخذت منهم الموصل (١٣٧٥) ثم تبريز (١٣٨٧) .

وأتى دور تيمورلنك ، فاقتحم اراضي الخروف الاسود ، واستولى عليها بعد انتصاره على زعيمهم قرة يوسف وهربه الى مصر (١٤٠٣) . ولما توفي تيمورلنك ، خلفه نجله شاهرخ ميرزا (١٤٠٥ - ١٤٤٧) . وفي عهده رجع قرة يوسف من مصر ، وسحق جيش التيموريين سنة ١٤٠٨ ، واستعاد سلطنته ، واحتل العراق العربي (١٤١٠) . وبعد وفاته ، حارب نجله اسكندر شاهرخ واضطره ان يتنازل عن اذربيجان والجزيرة الى شقيقه جهان شاه الذي انتزع فارس الغربية الواقعة على الخليج العربي من التيموريين (١٤٥٢ - ١٤٥٨) .

الا ان اوزون حسن ، امير اق قويونلو او الخروف الابيض ، انقض على ممتلكات الخروف الاسود ، واخذ منهم اذربيجان

والجزيرة وفارس الغربية سنة ١٤٦٨ . ثم انتشرت الفوضى في العراق وفارس في اواخر القرن الخامس عشر .

وكان الصفويون آنذاك يعيشون في مقاطعة اردبيل التي اقطعهم اياها تيمورلنك . وهم صوفية واصحاب طريقة ينتمون الى الامام موسى الكاظم ، رسخوا نفوذهم في اذربيجان ، واستعان زعيمهم اسماعيل بقبائل تركية ، وهاجم الخروف الابيض وقهرهم واستولى على اذربيجان وفارس والعراق ، ولقب نفسه بالشاه ، واسس السلالة الصفوية التي اشتهر من سلاطينها ايضا في وقت لاحق طهماسب الاول (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وعباس الاول (١٥٨٧ - ١٦٢٩) .

وحكم اسماعيل شاه ٢٣ سنة (١٥٠٢ - ١٥٢٤) ، وامتدت امبراطوريته من العراق غربا الى خراسان وامبراطورية المغل شرقا ، ومن باكو وتفليس شمالا الى الخليج العربي جنوبا . وازدهرت تجارتها في عهده . لكنه اضطر الى مجابهة الشيبانيين في ما وراء النهر (مقتل محمد الشيباني ، خان الازبك سنة ١٥١٠) والعثمانيين في الغرب والشمال الغربي والبرتغاليين في الجنوب الشرقي . وحكم بعده نجله طهماسب ٥٢ سنة ، ثم عباس الاول

٤٢ سنة ، بعد فترة اضطرابات داخلية واجتياحات خارجية .

الممالك في سوريا ومصر والحجاز

امتدت دولة الممالك على سوريا ومصر والحجاز في مطلع القرن السادس عشر وقبله . وأصل الممالك ارقاء ، اخذوا اسرى في الحروب او شروا صغارا ودرّبوا على الفروسية . وهم من القفقاس او من آسيا الصغرى اجمالا . وقد عملوا حراسا لايوبي مصر ، ثم تقفوا واستولوا على السلطة سنة ١٢٥٠ م . واختاروا شجرة الدر لتتولى امرهم . وكان عددهم يتراوح بين ١٠٠٠٠ و ١٦٠٠٠ فارس . ويقفون دوما صفا واحدا ضد اعدائهم او حتى ضد الشعب مهما عظمت الخلافات بينهم . ولا يتزوجون من غريبة ، ولا يتكلمون الا اللغة الشركسية ، ولا تربطهم باهل البلاد الا رغبة استغلالهم . وفي عام ١٥٠١ ، كان على رأسهم السلطان قانصوه الغورى الذي حكم حتى عام ١٥١٦ ، وخلفه طومان باى الثاني آخر سلطان مملوكي وآخر الممالك البرجية الشراكسة .

العثمانيون في آسيا الصغرى واوروبا

ينتمي العثمانيون الى قبيلة غزّ (اوغوز) رحلت من خراسان الى

الاناضول ، بزعامة ارطغرل بن سليمان شاه . واقطعهم علاء الدين كيقباد السلجوقي اراضي قره جاه طاغ قرب انقره ، فدعموه في حروبه ضد المغول وبيزنطية ، واجزل لهم العطاء . ولما توفي ارطغرل ، بقي نجله عثمان وفيه لآل سلجوق ، فمنحوه الاستقلال ، واذنوا له ان يمتلك فتوحاته (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ، وان يسك العملة باسمه ، وفي عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م توفي علاء الدين الثاني آخر سلطان سلجوقي ، فاعلن عثمان قيام الدولة العثمانية . وتوالى توسع العثمانيين في القرن الرابع عشر في تراقية ومقدونية والاناضول ، الى ان جاء تيمور لذك ، وضربهم ضربة قاصمة سنة ١٤٠٢ م .

الا ان العثمانيين نهضوا من كبوتهم في القرن الخامس عشر ، واعادوا بناء دولتهم ، واحتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، واستأنفوا توسعهم في البلقان ، في عهد محمد الثاني الفاتح . وبلغوا قمة المجد في القرن السادس عشر في ايام سليم الاول وسليمان القانوني .

البرتغاليون في بحر الهند

تحركت البرتغال في اتجاه بحر الهند في وقت مبكر جدا . وبدأت مسيرتها الطويلة التي دامت ٨٣ عاما على طريق الهند الاطلسية باحتلال

مدينة سبته سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م
في عهد ملكها جان الاول الكبير .
واندفعت في مجاهل بحر الظلمات ببطء
وحذر وثبات ، ووصلت الى طرفه
الجنوبي اي الى حدوده الجنوبية مع
بحر الهند بعد دورانها حول رأس
العواصف . فبرزت امامها صعاب
جديدة في بحر جديد لا تعرف شيئاً
عنه . مع ذلك ، نزلت في كاليكوت في
ملبار الهند عام
٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م .

وكانت دوافع مسيرتها الطويلة
اقتصادية محضة ، تمثلت في تنافس
البيوتات المالية الايطالية والممالك
الايبيرية على احتكار التجارة العالمية
التي كانت شرقية اصلاً تعتمد على
استيراد التوابل والحريز والبخور
والعطور والسلع الاخرى من الشرق
الاقصى والهند ، وجزيرة العرب
وساحل افريقية الشرقية ، وعلى
تصدير سلع اوروبا ومصر والشام
وجزيرة العرب الى الهند .

وشكّت البندقية في قدرة البرتغال
المالية والفنية والتقنية على الوصول
الى بحر الهند ، واذا وصلت اليه ، في
قدرتها على البقاء فيه لتكاليفه الباهظة
ومقاومة العرب وحلفائهم مسلمي
الهند المهيمنين على التجارة بين الشرق
والغرب .

ورغم هذا التشكيك ، بلغ
البرتغاليون الهند ، واقاموا متاجر لهم

وحصونا على ساحل افريقية
الشرقية ، وعلى السواحل الغربية
والجنوبية في شبه جزيرة الدكن
وجوزرات اوكمباية ، وتوسّعوا باتجاه
اندونيسيا ، وهاجموا الموانئ
العربية الجنوبية ودخلوا البحر
الاحمر والخليج العربي . واصبحوا
خطراً داهماً يهدد المصالح
الاقتصادية العربية في الصميم
والهندية ايضاً .

وانتشرت اخبارهم في العالم
اجمع ، ونادت ممالك ساحل الهند
الغربي المسلمة بالويل والثبور وعظائم
الامور ، واستنجدت بالممالك
(قانسوه الغوري) ، ثم بالعثمانيين
بعدهم (سليمان القانوني) . ولم
يستغيثوا بالصفويين . ولم يطلب
عرب الخليج ولا هرموز العون من
احد ، بل تدبروا امورهم انفسهم
بانفسهم .

اما الممالك والعثمانيون ، فقد
استجابوا لنداء القاضي والداني ، لأن
مصالحهم الاقتصادية اصبحت في
خطر هي ايضاً ، ولأنهم رغبوا في
توسيع نفوذهم وترسيخه في البحر
الاحمر والخليج العربي .

وهكذا يمكن ان نلخص اوضاع
التجارة بين بحر الهند والبحر المتوسط
واوضاع الدول الرئيسية المشرفة

عليها في مطلع القرن السادس عشر ،
بما يلي :

١ - حافظت مملكة هرموز على
كيانها ، وفدته بالمال : فدفعت
اتاوة سنوية الى التيموريين
(شاهرخ) لقاء حرية تصرفها ، ثم
الى الصفويين (شاه اسماعيل)
بعدهم .

٢ - اكتفى شاه اسماعيل بقبض المال
من مملكة هرموز وتركها وشأنها
تتصرف بتجارها وسيطرتها على
مناطق نفوذها ، وتفرغ للدفاع
عن سلطنته ضد الشيبانيين في
الشمال الشرقي وضد العثمانيين
في الشمال الغربي .

٣ - كان المماليك ضعفاء ماليا
وعسكريا ، يتهيئون غزو
العثمانيين لسلطنتهم المتداعية ،

ويعجزون عن حماية مصالحهم
الاقتصادية من تعديّات
البرتغاليين المتواصلة .

٤ - لم تكن للعثمانيين علاقة مباشرة
بالتجارة بين بحر الهند والبحر
المتوسط ، وكان شغلهم الشاغل
انتهاز الفرص للتوسع في الشرق
والغرب والجنوب .

٥ - كان البرتغاليون يصلون
ويجولون في بحر الهند والخليج
العربي والبحر الاحمر
مستفيدين من تفوقهم بامتلاك
سفن متطورة واسلحة فتاكة
(بنادق ومدافع) ، لم تصل بعد
الى ايدي العرب المستضعفين او
وصلتهم متأخرة وباعداد
محدودة ونوعية رديئة .

القسم الثاني

التوسع العثماني في الخليج العربي وأثره في تجارة المرفئيه

منافذ تجارة طريق الخليج ، وحاولوا
التغلغل في البحر الاحمر وفي الخليج
العربي ذاته ، فنشبت بينهم وبين
البرتغاليين حروب عديدة في مواقع
متباعدة وبعيدة فشلوا فيها كلها .

تغيّرت المعادلة الدولية كليا في الربع
الاول من القرن السادس عشر ،
فالعثمانيون قضوا على دولة المماليك في
سوريا ومصر وحلوا محلها ، وابتعدوا
الصفويين عن العراق وبالتالي عن احد

وتتجلى هذه الاوضاع الجديدة في النواحي التالية :

١ - قضاء العثمانيين على دولة الممالك وحلولهم محلها في السيطرة على منافذ تجارة بحر الهند على سواحل البحر المتوسط وفي موانئ البحر الاحمر لاسيما جدة والسويس .

٢ - ابعادهم الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصرة والاحساء على الخليج العربي .

٣ - قيامهم بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو وفي الخليج العربي .

أولا . قضاء العثمانيين على دولة الممالك وحلولهم محلها

أ . العلاقات العثمانية المملوكية في النصف الاخير من القرن الخامس عشر :

كانت الازمات تتلاحق في دولة الممالك ، عندما كان العثمانيون يتوسعون بفتوحاتهم ويزدادون قوة . وطبقت شهرتهم الآفاق بعد فتحهم القسطنطينية سنة ١٥٤٣ . واصبحت امبراطوريتهم في عهد السلطان سليم الاول احدى الدول الكبرى المسلمة الثلاث في العالم (العثمانيون ، الصفويون ، الممالك) ، بل اولاهما ، واحدى الدول

العظمى على مستوى اوربا ذاتها .

وكثيرا ما كانت تتوتر العلاقات بين العثمانيين والممالك وتنتهي بنشوب حرب بينهما ، ويظهر الممالك عليهم في نزاعاتهم المسلحة .

مع ذلك عندما خذل البنادقة الممالك حلفاءهم التقليديين في مطلع القرن السادس عشر ، نصرهم العثمانيون ووقفوا الى جانبهم من بعيد ضد البرتغاليين .

١ . الصراع البرتغالي - العربي المملوكي

ففي عام ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م ، نشب قتال في كاليكوت بين التجار المسلمين وبين البرتغاليين احرق فيه الافرنج عشر سفن مصرية ، فزاد العداء بين العرب والفرنج .

(١) تصاريح المرور البرتغالية : ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م

وفي العام التالي ، ٩٠٧ هـ ، قرر البرتغاليون منع العرب من الحصول على التوابل ، فاقاموا متاجر لهم في النقاط الرئيسية على ساحل شبه جزيرة الدكن الغربي ، واتخذوا اجراءات تقضي ان يحمل تصريح مرور كل تاجر يغادر احد البنادر الهندية والا وقع تحت طائلة عقوبة الاعدام او الاستبعاد . ولا تعطي تلك التصاريح الى القاصدين البحر الاحمر تجارا كانوا ام سفنا . مع ذلك ، بقيت

السفن تنقل التوابل «تهريباً» الى
البنادر العربية .

(٢) اعتراض البرتغاليين السفن
الذاهبة الى البحر الاحمر :
٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م .

وفي عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ، اخذ
البرتغاليون يعترضون السفن الذاهبة
الى البحر الاحمر ، واحتلوا البندر
العربي في جزيرة كلوة على ساحل
افريقية الشرقية ، وتحالفوا مع ملكي
كننور وكشن ضد ملك كاليكوت . وفي
عام ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م . ارسلوا
اسطولاً لمنع سفن المسلمين من دخول
البحر الاحمر .

(٣) تهديد بندر جدة :
٩١١ هـ / ١٥٠٥ م

وفي عام ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ،
توغل البرتغاليون في البحر الاحمر ،
ووصلوا الى مستوى جدة . وشعر
قانسوه الغوري بخطرهم على الاماكن
المقدسة المسلمة ، وقرر محاربتهم .

(٤) احتلال جزيرة سقطرة :
٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م

وفي عام ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م ،
احتل البرتغاليون جزيرة سقطرة ،
وبنو حصناً فيها ، وابقوا اسطولاً في
مياهاها ، مهمته مراقبة السفن ومنعها
من دخول باب المندب .

رغم جميع هذه الاجراءات ، ظلت

التوابل تصل الى الشام
والاسكندرية ، غالباً عن طريق الخليج
العربي . فقرر البوكيرك سدّ هذا
الطريق ايضاً .

(٥) احتلال مملكة هرموز :
٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م

لذلك هاجم مملكة هرموز بلا مبرر
ودون سابق انذار او اعلان حرب
خلافًا لجميع الاعراف الدولية . وبدأ
باحتيال بنادرها الواقعة على ساحل
خليج عمان لا سيما مسقط وصحار
وخورفكان . ثم استولى على هرموز ،
واغلق عملياً مدخل الخليج العربي في
وجه السفن الذاهبة الى البصرة .
فاصبحت الآمال معقودة على قانسوة
الغوري وعلى حملته البحرية التي طال
انتظارها .

٢. امتناع البنادقة عن مدّ يد العون
الى المماليك

كانت البندقية الدولة المستفيدة
الكبرى من المماليك والموزعة الرئيسية
لسلع الهند والشرق الواصلة الى
الاسكندرية . وكان مفروضاً فيها ان
تقف الى جانب حلفائها المماليك ضد
البرتغاليين لأنها تضررت من تصرفات
البرتغاليين مثلما تضررت مصر
وسوريا . لكنها لم تفعل بل تخلت
عنهم ، واتصلت بالصفويين عساها
توفق بفتح طريق برية من فارس الى
الامبراطورية العثمانية ، فساحل

البحر المتوسط .

٣ . حملة قانصوه الغوري البحرية على البرتغاليين : ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م

ادرك قانصوه بوضوح تام ان لا بد له من سحق البرتغاليين لتثبيت سلطته . فعزم على ملاحقتهم في بحر الهند ، ومنازلتهم هناك .

لكن اعترضت صعاب لا تحصى تجهيز حملته البحرية عليهم . فمالية دولته سيئة جدا تعجز عن دفع رواتب الجند ، والممالك فرسان بر لا أسود بحر . وكان لا بد من اعداد حوض جديد لبناء السفن في السويس لأن سفن البحر المتوسط لا تصلح لبحر الهند . وينبغي ايجاد خبراء صنع السفن والخشب وحديد المدافع والأشعة وكل ما يلزم . وتخطى الغوري جميع هذه العقبات ، وبوشر ببناء ١٩ سفينة سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م ، وظهر الاسطول المملوكي في بحر العرب سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م . وانتصر في البدء ، ثم قضى عليه سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م .

ولم يثن هذا الفشل قانصوه الغوري عن عزمه . فاستنجد بالسلطان بايزيد الثاني ، لكن انطلق فرسان القديس يوحنا من قاعدتهم في جزيرة رودس ، واعترضوا السفن المملوكية ، واستولوا على شحنتها .

ولا تعني هذه اليد البيضاء العثمانية ان الصفاء والود سادا العلاقات العثمانية المملوكية . فالخلافات بينهما كانت عميقة ، والقضية قضية مصير ، واسباب الحرب كثيرة .

ب . اسباب الحرب بين العثمانيين والمماليك

اسهمت اربعة اسباب رئيسية في اشعال الحرب بين العثمانيين والمماليك :

١ - اولها انتزاع الاشرف قايتباي من رسول السلطان الهندي محمد البهمني معظم الهدايا المرسلة الى السلطان العثماني ، مما ادى الى نشوب حرب عثمانية مملوكية في عهد بايزيد الثاني ، توسط ، حاكم تونس ، المولى عثمان الحفصي ، في انهاءها ، وانهاها دون ان ينهي ما في القلوب .

٢ - ثانيها الخلاف المزمع على بلاد ذي القدرية ، الواقعة شمالي سوريا ، والفاصلة بين المماليك والعثمانيين . فقد ضاق السلطان سليم ذرعا بفتنها ودسائسها ، فاحتلها سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ، وقتل امراءها لا سيما الامير علاء الدولة .

٢ - ثالثها تحالف المماليك والصفويين ، واتفاق الشاه اسماعيل وقانصوه الغورى على التآمر ضد آل عثمان .

٤ - رابعها ايواء قانصوه الغورى الامير علاء الدين ابن شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى عمه العثماني .

ج . المفاوضات والاحداث

١ - جهّز السلطان سليم الاول جيشا عظيما (١٥٠ ألفا) سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦ م ، واتجه به الى الشرق وكأنه يريد استئناف الاعمال الحربية ضد الشاه اسماعيل . واخبر الشاه اسماعيل حليفه قانصوه الغورى ان الاعمال الحربية متواصلة بينه وبين العثمانيين ، وحرّضه عليهم . فاعدّ الغورى جيشا كبيرا ، وسار على رأسه الى حلب في ١٧ أيار سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦ م ، ونزل بها في ١٠ تموز سنة ١٥١٦ م .

٢ - ارسل سليم الاول الى قانصوه الغورى سفارة مؤلفة من مولانا ركن الدين وقراجا باشا ، عرضت عليه ، لتفادي الحرب ، التنازل له عن بلاد ذي القدرية ، فاشتراط السلطان المملوكي عليها ارجاع القدرية الى نجل علاء

الدولة وامتناع العثمانيين عن محاربة الصفويين ، فرفضت ، فسجنها . ثم بعث في وقت لاحق بمندوب عسكري عنه وكلفه بتبليغ سليم الاول شروطه ، فاستقبل السلطان العثماني السفير المملوكي في البستان ، وقتل معاونيه ، وحلق ذقنه وشاربيه ، واركبه حمارا أعرج ، وردّه الى المماليك . فاصبحت الحرب حتمية بينهما .

٣ - وخرج قانصوه الغورى من حلب بقواته (٦٠٠٠٠ محارب ، منهم ١٦٠٠٠ فارس مملوكي والباقي جند مصريون وسوريون) الى مرج دابق ، يصحبه خيربك نائب حلب وسباهي نائب الشام . واتجه سليم الاول بجيشه الى حلب ايضا ، ومعه سنان باشا اعظم قواده والوزير يونس باشا .

٤ - وصدّت القوات المملوكية طليعة الجيش العثماني في البدء . الا انه كرّر عليهم ، واطلق عليهم نيران بنادقه بغزارة وقنابل مدافعه فارتعبت خيولهم وجفلت وعمّت الفوضى صفوفهم . وسارع خيربك نائب حلب الى خيمة قانصوه الغوري ، ونقل له ان العثمانيين دحروهم ، ثم انسحب الى حلب . وانتشر خبر

الهزيمة بسرعة فائقة بين الجنود ، فولّوا الادبار ، وقتل السلطان المملوكي دهسا بين الهاربين ، ولم يعثر على جثته .

٥ - وآل النصر العثماني في مرج دابق (٢٦ رجب سنة ٩٢٢ هـ / ٢٤ آب سنة ١٥١٦ م) الى خضوع باقي المدن سلميا ، والى الحاق سوريا ولبنان بالامبراطورية العثمانية اداريا وماليا وسياسيا . ونظم سليم الاول الملكية العقارية وجعلها اميرية وخاصة ، وحمى التجار ، وخفض الرسوم الجمركية من ٢٠٪ الى ٥٪ لتشجيع التجارة .

٦ - وامضى سليم الاول اربعة اشهر في بلاد الشام ، ثم استأنف مسيرته الزاخرة ليفتح مصر . وفعل وهزم طومان باي في الريدانية (٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ، ودخل القاهرة واقام في جزيرة الروضة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) . ولما القي القبض على طومان باي ، طيف به في شوارع القاهرة وشنق عند باب زويلة . وانتهت بشنقه دولة المماليك .

د. نتائج فتح العثمانيين سوريا ومصر

ترتب على فتح العثمانيين سوريا

ومصر نتائج عالمية ، يهمنها منها ما يتعلق بالتجارة بين بحر الهند والبحر الاحمر :

١ - فقد اصبحت الدولة العثمانية تسيطر على طريق البحر الاحمر العربية ، وعلى منفذي الاسكندرية وبلاد الشام . بالتالي ، تقتضي مصلحتها الاقتصادية العليا مرور السلع بأمان وبلا تعويق من مصادرها في الشرق الى اسواق استهلاكها في الشرق الادنى واوروبا .

٢ - وصارت مصلحتها الاقتصادية العليا متوافقة مع المصالح العربية الاقتصادية ومتضاربة مع المصالح الاقتصادية البرتغالية . وهذا الوضع ينبغي ان يؤدي منطقيا الى التقارب بين العرب والدولة العثمانية والى محاربة الدولة البرتغالية في بحر الهند والبحر الاحمر والخليج العربي . وقد حصل .

ثانيا . ابعاد العثمانيين الصفويين عن العراق ووصولهم الى البصرة والاحساء

قضى العثمانيون بتصفيتهم الممالك على اثنين من اعدائهم دفعة واحدة ، امبراطورية

٣ - أخيراً رغبة العثمانيين انفسهم بالتوسع باتجاه الشرق .

لذلك كله حدثت نزاعات مسلحة بينهما في ايام السلطان سليم الاول وفي ايام السلطان سليمان القانوني .

ب. الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليم الاول والشاه اسماعيل

١ - في سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، عقد السلطان سليم اجتماعا في ادرنة ضمّ وزراءه وقوّاده، تم فيه التداول في اعلان الحرب على الصفويين ، فاقره المجتمعون ، وابلغ الى الشاه اسماعيل .

٢ - تلاقي الجيشان في جالديران في ناحية تبريز ، وتفوق خياله الصفويين في البدء على الجناح العثماني الايسر . لكن ضربهم العثمانيون بمدافعهم عندما انتقلوا الى الهجوم على الجناح العثماني الايمن ، ففرّقوا شملهم وتغلبوا عليهم ، وجرح الشاه اسماعيل ، وهرب جيشه وهربه . ولحق بهم العثمانيون ، واحتلوا مدينة تبريز .

٣ - ثم قرر سليم الاول اخضاع بلاد كردستان ، فوقف في وجه الجيش العثماني اميرها قره خان الذي نصبه الشاه اسماعيل ، ووقعت بينهما معركة حاسمة دارت رحاها قرب بلدة فوجحصار ،

الممالك وبلاد ذي القدرية . لكن نشأت عداوة جديدة لهم مع البرتغال عن فتوحاتهم في سوريا ومصر ، الى جانب عداوة الصفويين التقليدية ، وانهماكهم في حروب البلقان وجزر المتوسط وشاء القدر ان يتولى شئونهم في تلك الظروف التوسعية في جميع الجهات سلطانان عظيمان جدا ، اخذا على عاتقهما التوسع في الشرق على حساب الدولة الصفوية واقتطاع ما يقرب من نصف اراضيها وضمه الى امبراطوريتهم الشاسعة ، نقصد سليم الاول وسليمان القانوني . وتميزت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالتوتر الشديد على الدوام . وكانت اسباب نشوب الحروب بينهما كاملة تنذر بالانفجار في اي لحظة .

أ. اسباب الحروب بين العثمانيين والصفويين

اهمها اربعة :

١ - ارسال الشاه اسماعيل دعاة الى الامبراطورية العثمانية ومحاولاته اثارة الفتن على الحدود .

٢ - واياؤه الامير مراد بن احمد شقيق سليم الاول ورفضه تسليمه الى العثمانيين .

انتصر فيها العثمانيون على جيش
الشاه اسماعيل مرة ثانية ،
وقتلوا قره خان ، فاعلن جميع
الامراء الاكراد الطاعة لهم .
عندئذ عاد السلطان سليم الاول
الى الآستانه (٩٢١هـ / ١٥١٥)
تاركا بعض قواده في كردستان
على ان يعود الى تصفية
الصفويين في وقت لاحق .

٤ - الا انه انشغل بفتح بلاد الشام
ومصر ، ثم رجع الى الآستانه ،
وتوفي سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩ م
وهو في طريقه الى ادرنة ، وخلفه
نجله سليمان القانوني
(٩٢٦هـ / ١٥١٩ م -
٩٧٤هـ / ١٥٦٦ م) .

جـ . الحروب العثمانية الصفوية في عهد سليمان القانوني وطهماسب الاول خليفة الشاه اسماعيل :

لم تتوقف الحروب بين الصفويين
والعثمانيين بوفاة الشاه اسماعيل
وسليم الاول ، بل تجددت لتجدد
اسبابها .

فقد تحالف طهماسب الاول مع
البرتغاليين ضد العثمانيين ، لأنه كان
بحاجة لبنادقهم ومدافعهم ، ولأنهم
كانوا بحاجة الى استبعاد العثمانيين
عن النشاط الحربي في بحر الهند
والبحر الاحمر والخليج العربي .

واستقبل سفارات شارل الخامس

ملك اسبانية وامبراطور الامبراطورية
الجرمانية المقدسة وعدو العثمانيين في
اثناء حصارهم مدينة فيينا سنة
٩٣٦هـ / ١٥٢٩ م) ، ووعدوه
بدعمه في حربه مع سليمان القانوني .

وتكررت غارات اكراد فارس
الصفوية على الممتلكات العثمانية في
ديار بكر وولاية حلب . فاعلن سليمان
القانوني الحرب على طهماسب .

١ . احتلال سليمان القانوني بغداد وقبوله مفاتيح البصرة : ٩٤١هـ / ١٥٢٤ م :

وسار على رأس جيش عثماني
قاصدا الامبراطورية الصفوية
وعاصمتها الجديدة . وفي اواخر
خريف سنة ٩٤١هـ / ١٥٢٤ م ،
بينما كان يفتش عن موضع ينزل فيه
وهو وجيشه لتمضية فصل الشتاء ،
اذ جاءه موفد من محمد خان ، حاكم
بغداد الصفوي ، يحمل رسالة بقي
مضمونها سريرا ، لكن ظهرت آثارها
عندما اتجه العثمانيون الى بغداد .
فقد غادرها محمد خان قبلهم .
واستقبلت الجيش العثماني بالزينة
والترحاب ، فدخلها بلا قتال . واعلنت
المدن العراقية خضوعها الواحدة تلو
الآخري ، لا سيما البصرة التي قدّم
اميرها راشد بن مغماس مفاتيحها
للسلطان العثماني .

وامضى سليمان القانوني اربعة

اشهر في بغداد ، بنى في غضون قلة
فيها ، وجعلها ولاية عثمانية ، ونظم
الحكم المحلي فيها ، وعين سليمان
باشا الالباني واليا عليها ، وترك له
حامية تضم ألفا من المشاة المسلحين
بالبنادق والفا من الفرسان . وفرز
٣٢,٠٠٠ جندي لحماية الولاية ، ثم
غادر بغداد في ٢ نيسان سنة
٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ، وذهب شمالا .

٢- ثورة البصرة الاولى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م واخمادها:

حكم يحيى رئيس احدى العشائر
العربية البصرة بعد وفاة راشد بن
مغامس ، وارسل السلطان سليمان
القانوني في ايامه خرم بك ليني قلعة
تراقب حصونا كانت قد اعطيت لبعض
العرب مكافأة لا نضمامهم الى جانب
العثمانيين . فاستاءوا ، واستنجدوا
بيحيى حاكم البصرة ، فنجدهم بمائة
سفينة . الا ان اويس باشا ، والي
بغداد العثماني ، ارسل الفي جندي
الى خرم بك على وجه السرعة ، فهزم
خرم المتمردين .

لكن رفض يحيى ، حاكم البصرة ،
الخضوع . فسّيرت بغداد جيشا
ضده . ولحق بالجيش الاول جيش
شان بقيادة والي بغداد نفسه .
وهوجمت البصرة من الجنوب
والشمال ، وانتصر العثمانيون على
العصاة الذين هربوا الى الاحساء .

ودخلوا البصرة في ١٥ كانون الاول
سنة ١٥٤٦ م ، وعيّنوا بلال محمد بك
حاكما جديدا لها . واسسوا فيها دار
صناعة لها حوض احتفظ فيه بـ ١٥
سفينة لاستعمالها ضد البرتغاليين .

د. الاضطرابات في البصرة وبغداد في عهد السلطان العثماني سليم الثاني (٩٧٤هـ/١٥٦٦م). ٩٨٢هـ/١٥٧٤م):

١- ثورة البصرة الثانية سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م واخمادها

وفي عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦ م ، في
اوائل سلطنة سليم الثاني ، اوقف
حاكم البصرة شيخا من بني عليان ،
وحاول ان يقتص منه بسبب بعض
الجرائم التي ارتكبها بعض افراد
عشيرته . فهرب الشيخ ، وترقب
الحاكم حتى توجه الى الاحساء ،
فهاجمه وضره . واستعدّ ٢٠,٠٠٠
بدوى لحصار البصرة من البر والماء .
ونزلوا على اطواف نخيل في نهر دجلة ،
وعجزت مدافع العثمانيين عن
ايقافهم . ثم ترك العرب الاطواف ،
واضرموا النار فيها ، ووجهوها الى
الحصون التركية ، وسبحوا هم الى
الشاطئ يترقبون الحصون ويطلقون
النار على كل جندي يبين . فاخذت
حامية احد الحصون بالدخان . كذلك
اوقع العرب فرسان الترك في الشرك ،
وامنعوا تقتيلا بهم . مع ذلك ، لما
جاءت التعزيزات من بغداد ، انسحب

البدوسنة ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م ، وقبل
ابن عليان ان يدفع ضريبة الى خزينة
البصرة مقدارها ١٥,٠٠٠ ليرة
ذهبية .

٢- ثورة بغداد سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م وإخمادها :

وفي بداية عام ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م
جمع الأمير الصفوى القاص ميرزا
شقيق طهماسب ، ١٢٠٠٠ محارب
من جيورجية والقفقاس والمنفيين ،
وأخفاهم في بعض الأودية القريبة من
بغداد ودخل هو مستترا بثياب تاجر .
وتسلل ١٥٠٠ من رجاله الى داخل
المدينة . وكانت خطتهم تقضى بقتل
الوالى وموظفيه وكل من يعترضهم .
لكن وشى بهم أحد الخارجين على
القانون ، وأبيد المتآمرون ، وهرب
ميرزا مع ٣٠٠٠ من فرسانه .

هـ- نتائج إحتلال العثمانيين العراق :

وترتب على إنتصار العثمانيين
نتائج كثيرة ، يهمننا بعضها فقط .

١- فقد أتم العثمانيون بامتلاكهم
العراق ، سيطرتهم على دروب
القوافل في العراق والشام
ومصر ، وعلى منافذ الطريقين
البحريين العربيين اللذين
تسلكهما تجارة المرور الدولية بين
بحر الهند والبحر المتوسط .

٢- وصارت مصلحتهم الاقتصادية
العليا تقضى بإنعاش التجارة في

الأجزاء الجديدة من
امبراطوريتهم ، لما تستوفى الدولة
من رسوم على أصنافها وما توفر
أعمالها من أسباب حياة لكثير من
السكان .

٣- وأصبحوا بالتالى ملزمين بتأمين
الملاحة في الخليج العربى والبحر
الأحمر وبحر الهند ومقاومة
البرتغاليين بحد السيف
لمحاولتهم سد الطريقين العربيين
وتحويل حركة النقل بالقوة الى
الطريق الأطلسية .

وقضت هذه الاعتبارات أن
يقوم العثمانيون بحملات بحرية
بعيدة على البرتغاليين وعلى
متاجرهم في ساحل الدكن الغربى
وفي الديو وفي الخليج العربى .

ثالثا. قيام العثمانيين بحملات بحرية بعيدة على متاجر البرتغاليين في الديو والخليج العربى :

بلغ عدد الحملات الحربية البحرية
أربع حملات ، جرت كلها في عهد
سليمان القانونى ، وأنطلقت اثنتان
منها من ميناء السويس على البحر
الأحمر ، واثنتان من مرفأ البصرة .
فقد أدرك هذا السلطان العثمانى
العظيم أن ازدهار العراق وسورية
ومصر وبالتالي الأجزاء الجديدة
والأساسية من الأمبراطورية
العثمانية الناشئة ، يتوقف على إعادة

**أ. حملة سليمان باشا الخادم الملقب
بالوزير (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) ضد
البرتغاليين :**

١ - التعريف بسليمان باشا :

أصل سليمان باشا انكشارى يونانى من شبه جزيرة مورهِ ، عمره ٥٠ سنة فيما قيل ، وهو قصير ، بدين ، ذميم ، قبيح الخلقة ، شر الاخلاق ، فتاك ، غدار ، لكنه جبان ، خوار ، خواف ، لم تعهد فيه شجاعة ولا اقدام .

**٢ - إعداد الأسطول في ميناء
السويس :**

وكانت السويس ، ميناء اعداد أسطول الحملة وانطلاقها ، قرية بائسة ، شبه محرومة من المياه العذبة منذ ٨ قرون بعد ترميل القناة التى كانت تصلها بنهر النيل ، تعيش من خدمات القوافل الذاهبة الى القاهرة ، ومن مرور الحجاج المسلمين الى مكة والمدينة ، والمسيحيين الى سيناء ، لكن نشاطها كان يزداد فى وقت اعداد الحملات البحرية فيها . وقد وصفها الايطالى ف. بيغافتا سنة ٩٨٤هـ/١٥٧٦م ، فقال : السويس بلدة صغيرة ، فيها القليل من المنازل المنخفضة الفقيرة ، يسكنها الأتراك وبعض العرب والمسيحيين واليهود المهتمين بالمكوس وبعض المرتدين من الايطاليين المغامرين . وتحوى عدة

النشاط الى المواصلات المائية بين بحر الهند والبحر المتوسط عن طريق الخليج العربى أو عن طريق البحر الأحمر أو عن كليهما . لذلك كان لابد من مجابهة البرتغاليين وحلفائهم الذين عرقلوا تلك المواصلات ، وحولوها الى الجهة الغربية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان لابد من تلبية نداءات الاستغاثة الصادرة عن ملوك مصادر السلع فى الهند مثل ملك كاليكوت (٩٣٤هـ/١٥٢٧م وملك الديو ٩٣٩هـ/١٥٣٢م) وملك جوزرات (كمباية) الذى تعهد بدفع نفقات حملة عثمانية قوامها ١٠٠٠٠ جندى .

ورأى السلطان العثمانى أن الفرصة مواتية له ، فأمر سليمان باشا حاكم مصر بإعداد أسطول والذهاب لقتال البرتغاليين ، وكتب له ما يلى : عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجاتك ، وإعداد العدة .. للجهاد فى سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة ، وجمع جيد كاف ، فعليك أن تخرج الى الهند ، وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإذا قطعت الطريق ، وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة ، تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون ، وازلت رأيتهم من البحر .

٣ - زهاب أسطول الحملة الى الديو
وهرموز : ٢٣ حزيران
١٥٣٨م/٩٤٥هـ :

وغادر أسطول الحملة السويس
سنة ٩٤٥هـ/٢٢ حزيران ١٥٣٨ ،
ومر بجدة وجزر كمران وعدن والشحر
والديو وهرموز .

ففى جدة ، نصبت الصوارى
والمدافع ، وأخذ سليمان باشا
١٠٠٠٠٠ أشرفى من حاكمها . وفى
كمران رسا الأسطول واستعذب قبل
أن يتجه الى باب المندب .

وعبر مضيق باب المندب ، وذهب
الى عدن . وكان عامر بن داود من بنى
طاهر ملكا عليها وقال النهروالى : لما
بلغه وصول سليمان باشا للغزو فى
سبيل الله وقطع جادة الفرنج عن
الاضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ،
وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد
ما أراد من الازواد ، وتوجه هو
وويزره للسلام عليه الى الغراب الذى
هوفيه . فمجرد أن رأى سليمان باشا
باب عدن قد فتح ، أمر عسكره بدخول
عدن وأخذها . فلما وصل اليه عامر
البسه ومن معه خلعا ، ثم أمر بصلبهم
على الصارى فى الغراب الذى هوفيه ،
ونهب العسكر داره ، وشرعوا فى نهب
البلد .

وقد وصف عدن أحد البنادقة
الذين اشتركوا فى الحملة ، فقال
عنها : «عدن حصينة الى أقصى حد .

حمامات وجوامع وسوق بيع كبيرة فيها
المخازن والمؤن والسلع . ولدار
الصناعة فيها حوض ماء كافى العمق ،
يمكنه أن يستوعب ١٥ الى ٢٠
سفينة . وشاهد بيغافتا فيها ١٦
سفينة ، أربع منها فقط صالحة للعمل
و ١٣ مدفعا لحمايتها . وتبنى دار
صناعتها زوارق تجارية صغيرة
لحساب السلطان ، تؤجر لبعض
الناس لأن الباب العالى يحتكر
الملاحة .

ولم يكن بناء الأسطول فيها
ميسورا . فالخشب مفقود فيها وفى
مصر وفى بلاد الشام ، ويؤتى به من
خليج اياس الى الأسكندرية فى البحر ،
ثم ينقل فى نهر النيل الى القاهرة ،
ويحمل منها على ظهور الجمال الى
السويس . واليد العاملة الخبيرة
مفقودة أيضا ، فاستعين بمهندس
بناء سفن من جينة . والملاحون
مفقودون ، فجىء ب ٨٠٠ بندقى
و ١٥٠٠ بحار من جميع أنحاء
الأمبراطورية العثمانية .

لذلك تأخر اعداد أسطول حملة
سليمان باشا الى ربيع سنة
٩٤٥هـ/١٥٣٨م . ولما إنتهى بناؤه ،
بلغ عدد سفنه ٧٠ غرابا و ٣٠ برشه
حسب النهروالى و ٧٤ الى ٧٦ سفينة
حسب المصادر البرتغالية . لكن لم
تركب صواريخها ولم تنصب مدافعها
عليها فى السويس .

تقع على شاطئ البحر ، تحيط بها جبال عالية ، وتحميها قلاع وحصون . وليس من جهة البحر والبر سوى منفذين يتمثلان في فتحتين عرضهما ٣٠٠ قدم . وتحرسهما حصون هلالية وأبراج وأسوار . ويمتد أمام شاطئها جبل رملي يأتي بعده ميناء جنوبى تحميه قلعة يقع عند أسفلها برج يحرس مدخل الميناء الذى يبلغ عمقه ١٢ باعا وينتهى بقعر ممتاز . ويقع فى شمالها مرفأ آخر أوسع بكثير من الجنوبى . ويتوفر الماء فيها رغم جفافها وجذب أرضها . ويأتى ماؤها من المطر ، ويجمع فى صهاريج عميقة جدا يسخن فيها ، ويرد قبل شربه .

وعدن مدينة تجارية ، تقصدها كل عام سفن كثيرة قادمة من الهند محملة بالتوابل التى تنقل الى القاهرة . وقد ترك فيها سليمان ثلاث سفن لحراسة الميناء و ٥٠٠ انكشارى .

ومر سليمان باشا بالشحر ، وأخذ من سلطانها ١٦٠ أسيرا برتغاليا و ٦ سفن ضمها الى اسطولها . وذهب بعدها الى الديو ، ووصلها سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م ، وكانت أنباء غدره قد سبقته وبلغت مسامع سلطان جوزرات .

وكانت مدينة الديو ذاتها تابعة لمملكة كمباية أو جوزرات . ويحكمها الخواجا صفر الملقب خداوندخان ، وهو مرتد إيطالى . ولا يسيطر

البرتغاليون إلا على القلعة التى بنوها ووضعوا فيها حامية قوامها ٨٠٠ جندى بقيادة ف. باشيكو ، ومعهم ست سفن حربية .

ونزل سليمان باشا فى موضع إسمه مظفر أباد قرب الديو . ففتح له خداوندخان أبواب الديو ، فسلبها عسكره . رغم ذلك اضطر أن يتعاون معه فى حصار القلعة البرتغالية الذى دام خمسة أسابيع تقريبا . وأصيب فيه المدافعون والمحاصرون بخسائر فادحة : فقد شقت المدفعية العثمانية ثغرات فى أسوار القلعة ، هرب منها كثير من الجند وباشيكو نفسه . وأسروا . وأغرقت المدفعية البرتغالية عددا كبيرا من أحسن أغربة الباشا . ولم يكن الحصار محكما فدخلت تعزيزات بحرية برتغالية عديدة الى المرفأ . وفشل هجوم شامل لاحتلال القلعة قام به الأتراك وخداوندخان معا فى ٣٠ تشرين الأول وسنة ١٥٣٨ .

وخاف سليمان باشا من وصول أسطول برتغالى جديد بقيادة د. غرسيا دى نورونها من بحر الهند على حين غرة . وأوحى له خداوندخان أن البرتغاليين أوشكو ، مثلما اعترف رسل من قبلهم وقعوا فى أسرهم ، أن يفاجئوا الديو بأسطول ضخم ليفكوا الحصار عن قلعتهم . فترك سليمان باشا مدافعه الكبيرة لخداوندخان ، وركب أغربته ، وأبحر باتجاه هرموز ،

عساه يلتقى في طريقه بسفن برتغالية منفردة ليسيطر عليها . ولما لم يعثر على أى سفينة كر راجعا الى السويس . أما خداوندخان ، فوقع مع البرتغاليين إتفاقا يحدد حقوقهم دون أن يضطربهم الى إخلاء قلعته .

٤ - عودة أسطول الحملة الى القلزم : ١٦/٩٤٦هـ - ١٦/١٥٣٩م :

ومر سليمان باشا على الشحر ، ووضع فيها حامية عربية ، لكن غرقت ثلاث من سفنه عندها وتوقف في عدن وقوى حاميتها فأُنزل فيها ٢٠٠ انكشارى و ١٠٠ مدفع وذخيرة وأبقى فيها خمسة أغربة .

وغادر عدن ، وجاء الى مخا ، ونزل في بندرها ، وخلع الناخوذه أحمد ، وأصر على مثوله بين يديه . فتهرب الناخوذه أحمد ، وذهب الى زبيد . فانتقل سليمان باشا بأسطوله الى جزر كمران (آخر كانون الثانى سنة ١٥٣٩م/٩٤٦هـ) ، وأبحر بسفن صغيرة الى البر ، وقصد زبيد ، ونصب خيامه عند أسوارها . وقطع رأس الناخوذه أحمد (٩٤٦هـ/٢٧ شباط ١٥٣٩) . ورجع الى أسطوله ، وعرج على جيزان التى انتزعها من شريف مكة ابى نمي بعد أن احتلها هذا الأخير ، ثم ذهب الى جدة ، وسافر منها الى مكة حاجا ، وعاد فمر ببينبع ، وعبر منها الى القلزم بعد أحد عشر شهرا تقريبا من مغادرته

السويس : ١٦ أيار سنة ١٥٣٩م ، وعاد سليمان باشا من مصر الى الاستانة ، وعزل بعد فترة وجيزة بعد أخذ ورد . وانتحر سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٢ - ١٥٥٣م .

ب. حملة بىرى ريس : ١٥٥٨هـ/١٥٥١م :

شغل بىرى ريس منصب قبودان أى أمير بحر في مصر . فكلفه السلطان سليمان القانونى بقيادة أسطول عثمانى يضم ٣٠ سفينة تحمل ١٦٠٠٠ جندى من السويس الى الخليج العربى لقتال البرتغاليين .

وغادر السويس سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م . وقطع البحر الأحمر ، وعبر باب المندب ، وتوقف في عدن وعزز حاميتها ، ومر بالشحر ، وفقد بعض سفنه على شاطئها ، ووصل الى مياه مسقط في مطلع ٩٦٠هـ/١٥٥٢م .

وكان جاوودى ليسبو قائد حامية مسقط فحاصرها بىرى ريس شهرا كاملا فاستسلمت له بعد أن أمن المحاصرين على حياتهم . لكنه أخذهم عبيدا ، واستولى على مدافعهم ، ومؤونهم ، وأجبرهم على التجديف في مراكبه .

ثم ذهب الى هرموز ، وحاصر القلعة البرتغالية فيها شهرا أيضا ، وضربها بمدفعه ، والحق بها أضرارا كبيرة . إلا أنه يؤس من احتلالها ، فنهب

فكر راجعا الى البصرة ، وأبلغ الباب العالي بفشله .

د. حملة علي بن الحسين الخليفة سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م :

لم يتخل السلطان سليمان القانوني عن محاربة البرتغاليين في الخليج العربي . ففي عام ١٥٤٤م/٩٦٢هـ ، كان في مدينة حلب ، فعين عليا بن الحسين أمير بحر . وكلفه بجلب السفن العثمانية من البصرة الى السويس . فذهب علي بن الحسين الى شط العرب واستلم قيادته البحرية . وخرج بأسطوله الذي كان يضم ١٥ سفينة ، واتجه الى الجنوب . فمر ببوشير والبحرين وجزيرتي قيس والقسم ، وجلفار ورأس مسندم ، وأصبح في خليج عمان .

وهنا هاجمته قوة بحرية برتغالية أولى قوامها ٢٠ سفينة في شهر آب سنة ١٥٥٤م . وتكبد بعض الخسائر ، لكنه أكمل طريقه مجاريا شاطئ صحرار ومسقط وقلعات . فهاجمه أسطول برتغالي ثان مؤلف من ٣٤ سفينة . وقاومته الطبيعة أيضا ، إذ هبت عليه عاصفة عاتية ، بددت سفنه ، وقذفتها الى الشرق ، وساققتها رياحا نحو الديو وسرت ، واضطر القبودان أن يرمى مدافعه في البحر لينجى مراكبه ، فأصبح عاجزا عن مجابهة البرتغاليين ، ولجأ الى مرفأ

ما استطاع من المدينة والجزيرة . وفرقت عاصفة شديدة أسطوله ، لكن نجت منه ١٥ سفينة ذهبت الى البصرة ، ولم يبق معه سوى ثلاث سفن تعاطى بها أعمال القرصنة في الخليج العربي قبل أن يصل هو أيضا الى بندر البصرة . وقيل له فيه أن البرتغاليين يتعقبونه ، فحاول الخروج من الخليج بثلاثة مراكب ، فقد أحدها أمام البحرين ، وتمكن من التخلص من أعدائه بالمركبين الباقيين . وعاد بهما الى السويس ومنها الى القاهرة بغنائم جمة .

وهكذا فشلت حملة بيرى ريس فشلا ذريعا ، فحوكم بتهمة التقصير والسلب والنهب بناء على طلب والي البصرة العثماني ، فحكم عليه بالاعدام ، ونفذ به سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م .

ج. حملة مراد بك : ٩٦١هـ/١٥٥٣م :

عين مراد بك أمير بحر في مصر سنة ١٥٥٤م خلفا لبيرى ريس . وكلف بإعادة السفن الى السويس . فذهب الى البصرة ، وأقلع بتلك المراكب في شهر آب سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م . إلا أن البرتغاليين اعترضوه مقابل هرموز ، فأغرقوا أفضل سفينة عنده ، وخرج بباقي سفنه الى خليج عمان مجاريا صحرار وقلعات . وهناك هاجمه أسطول برتغالي ثان مؤلف من ٣٢ سفينة بقيادة ف. دي نوروها .

الفشل مثلما أخفقت حملة قانصوه الغورى عليهم قبله بثلاثين عاما . لكن هذا لا يعنى أن الفرنج نجحوا فى إيقاف التجارة الدولية فى الخليج العربى أو البحر الأحمر على الدوام . فقد ظلت أوضاعهم مضطربة الى أن تغلب أهل الخليج أنفسهم على جميع اجراءاتهم ، وعادوا الى مزاولة نشاطهم التجارى ووساطتهم بين بحر الهند والبحر الأحمر ، مثلما كانوا يفعلون قبل مجىء فاسكو داغاما الى بحر الهند .

وعادت الأمور الى ما كانت عليه فى أقل من ربع قرن ، أى منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر .

دمن بعد ثلاثة أشهر من اقلاعه من البصرة . وتخلّى عن سفنه الباقية الى خداوندخان الذى تعهد بإرسال ثمنها الى الاستانة .

ولما سمح له بالعودة الى بلاده ، استصحب معه ٥٠ من رجاله ، ورجع عن طريق البر الى تركيا ، وممر بالسند وما وراء النهر وخراسان وفارس . ووصل فى شهر نيسان سنة ١٥٥٧م الى اندرينوبل حيث استقبله السلطان سليمان القانونى . فقدم له كتابه المحيط المعروف . وتوفى على بن الحسين سنة ١٥٦٢م فى السنة التى أعدم فيها بيرى ريس .

وهكذا انتهت حملات سليمان القانونى البحرية على البرتغاليين الى

المصم الثالث

استمرار وصول السلع إلى الخليج العربي وشحنها إلى البحر المتوسط وإلى بحر الهند

أن تقطع جميع مسالك التجارة الدولية وطرق وصول أصنافها الى البصرة فبغداد فحلب فطرابلس أو بيروت ، أو الى القاهرة فالأسكندرية ، ثم الى أوروبا الجنوبية والوسطى بسفن البندقية خاصة وسفن مدن أخرى كثيرة .

لم يؤثر فتح طريق رأس الرجاء الصالح على وصول التوابل والسلع الأخرى الى المياه العربية وبنادرها . وأثبت المؤرخون الألمان هذا الواقع قبل سواهم ، لأن البندقية لم تتوقف عن تموين بلادهم بالتوابل وسلع الشرق . وبالتالي لم تستطع البرتغال

أولاً: انقطاع شحن التوابل الى الأراضي العربية في الربع الثاني من القرن الـ ١٦:

ولا شك أن نجاح البرتغال في البدء في الوصول الى مصادر السلع الشرقية وفي شرائها من منتجيتها مباشرة ، أثار أزمة خانقة في البنادر العربية في الخليج والبحر الأحمر والبحر المتوسط وفي جمهورية البندقية خاصة لأن تجارها مالوا الى التشاؤم وأدركوا متأخرين نتائج السياسة التجارية البرتغالية ، وتوقعوا حصول كارثة اقتصادية في مدينتهم بعد أن أخذت الأسعار تتعرض عندهم الى تقلبات مفاجئة مذهلة نشأت عن الاجراءات البرتغالية وعن ردود فعل البندقية سيدة الأسواق الأوروبية .

أ - الإجراءات البرتغالية :

وتلخصت التدابير البرتغالية فيما يلي :

- ١ - حدد الملك دون مانويل سعرا رسميا واحدا لبيع الفلفل سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ، وحصر تجارة التوابل بالتاج البرتغالي وحده .
- ٢ - قطعت التوابل قطعاً شبه كامل عن أسواق الإسكندرية وبيروت وطرابلس والأسكندرونه . ففي عام ١٥٠٢م . وجدت أربع بالات فلفل فقط في بيروت ، ولا شيء البتة في بيروت والأسكندرية سنة ١٥٠٤ و ١٥٠٦ . فتعذر العثور على حمولة توابل لأي

سفينة في تلك السنوات .
٣ - حلت لشبونة محل البندقية في كثير من الأسواق الأوروبية ، فسيطرت البرتغال على سوق هولندا سنة ١٥٠١ ، وسوق انكلترا سنة ١٥٠٤ بعد وصول خمس سفن برتغالية مشحونة بـ ٢٨٠ طنا من الفلفل والتوابل من كاليكوت مباشرة ، وسوق ألمانيا الشمالية والوسطى سنة ١٥٠٧ ، وسوق فرنسا الغربية وقشتالة بعد سنة ١٥٢٤ .

٤ - وأخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانئ البحر المتوسط مثل جينوة (١٥٠٣) .

ب - ردود فعل البندقية :

حاولت البندقية أن تقاوم توسع البرتغاليين في أسواق التصريف بشتى الوسائل .

- ١ - فسمحت في شهر أيار سنة ١٥١٤ بنقل التوابل من مرافئ المشرق بسفن غير سفنها وأعفتها من الرسوم الجمركية عند دخولها الى أراضيها .
- ٢ - ولم تقف عند هذا الحد ، بل تقربت من البرتغال ، فجلبت سنة ١٥١٥ ما ينقصها من التوابل من لشبونة ذاتها .

٣ - وفي عام ١٥٢٧ ، عرض مجلس شيوخ البندقية على ملك البرتغال أن يشتري كل التوابل الواصلة الى لشبونة من الهند ، ما عدا الكمية اللازمة لاستهلاك البرتغال ، ويوزعها

في أوروبية ، مما يدل على وضع البندقية الحرج وعلى احتلال لشبونة الأسواق الأوروبية على نطاق أوسع مع مرور الزمن . وقبول العرض بالرفض البات .

لكن لم يدم النصر البرتغالي الأولى طويلا فسرعان ما عادت تجارة التوابل الى ما كانت عليه قديما ، وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر .

ثانيا : استئناف شحن التوابل الى الأراضي العربية في النصف الثاني من القرن السادس عشر :

مع ذلك ، لا يجوز أن نتصور أن شحن التوابل وغيرها من السلع الى البنادر العربية انقطع إنقطاعا تاما في وقت من الأوقات ، لأن آلاف الوثائق المصرية والأوروبية ، خاصة وثنائق البندقية ومرسيلية ولشبونة ، تثبت وجود تنافس شديد بين التوابل المتوسطية أى الواردة عن الطريقين العربيين والتوابل الأطلسية أى الواردة عن الطريق العربية ، وإزدهار حركة التجارة الدولية في المياه العربية في الخليج والبحر الأحمر ، ودوام عبور السفن المحملة بالسلع فيهما بانتظام حتى نهاية القرن السادس عشر .

أ. التنافس بين التوابل المتوسطية والتوابل الأطلسية :

فلم يتوقف إرسال التوابل

المتوسطية الى مرفأ انفرس وبلجيكا في النصف الأول من القرن السادس عشر وربما بعد هذا التاريخ .
١ - ففي عام ١٥١٠ ، كانت إحدى السفن تنتقل بين الأسكندرية وانفرس حاملة التوابل .

٢ - وفي عام ١٥٤٠ ، اثرت التوابل المتوسطية في أسعار سوق انفرس ففرض الايبيريون (البرتغال واسبانيا) حصارا «توابليا» على فرنسة . مما أدى الى تنشيط حركة مرسيلية التجارية بأنواع التوابل .
(١) بالفعل شحنت مرسيلية سنة ١٥٤٣ فلفلا الى مدينتى ليون وطولوز .

(٢) وتبادل الفرنسيون والانكليز شراء وبيع التوابل في منتصف القرن السادس عشر ، لاسيما في روان ولاروشيل وبوردو .

(٣) وفرضت قشتالة عام ١٥٥٩ ، رسوما جمركية مقدارها ١٠٪ من قيمة التوابل الداخلة الى أراضيها فتضرر الفلفل البرتغالي .

(٤) وفي عام ١٥٦٥ ، وصلت شحنات فلفل من مرسيلية الى روان (نورماندية) ونافست في طولوز الفلفل البرتغالي الذي كانت تبيعه مدينة بوردو .

(٥) وارتفعت أسعار التوابل في لشبونة عام ١٥٩١ لعدم وصول أى سفينة اليها من الهند ، وبقيت أسعار الفلفل ثابتة لأن البندقية تلقت كميات

كبيرة منه من المشرق (توابل سطحية).

(٦) وتبين في آخر القرن السادس عشر أن الفلقلين الأطلسي والمتوسطى يتنافسان دون أن يستبعد أحدهما الآخر.

وتعنى هذه الوقائع المادية أن العرب استأنفوا تزويد منافذ البحر المتوسط بالتوابل عبر طريقيهم المائيين. وقد استفاد من هذا النشاط المستجد التجار الأوروبيون، وفي طليعتهم البنادقة، وبعدهم تجار مرسيلية وتجار راغوز في صقلية. واستقرت تجار البندقية في الأسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب، واستغنوا عن الوسطاء اليهود المحليين الأثرياء. ويدل وجود التجار الأوروبيين في منافذ التجارة الدولية على البحر المتوسط دلالة قاطعة على ازدهار التجارة الدولية بين الشرق والغرب عن طريق الخليج العربي في معظم الأحيان وعن طريق البحر الأحمر أحيانا أخرى.

ب. ازدهار حركة تجارة المرور الدولية في الخليج العربي والبحر الأحمر:

يتصور بعض المفكرين أن الطريقتين العربيتين، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر، يتنافسان ويتزاحمان، وأن انتعاش أحدهما يستلزم الركود في الآخر. والحقيقة

أن الظروف الدولية هي التي كانت تفرض على التجارة الدولية اختيار هذا الطريق أو ذاك أو امكانية سلوكهما معا.

١- فالحركة التجارية تباطأت في الخليج العربي في أثناء الحرب بين العثمانيين والصفويين في عهد سليم الأول وفي عهد سليمان القانوني، وفي أثناء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية. وأدى ركودها إلى توقف القوافل عن الذهاب إلى حلب التي يرتبط نشاطها بنشاط مملكة هرموز. وقد يؤس أحد التجار الراغوزيين من هذا الوضع، فقال: في شهر تموز سنة ١٥٥٧: لا أظن أن السلع فقدت في حلب مثلما فقدت في هذه الأيام: فليس فيها سوى الصابون والرماد. وسعر العفص ١٣ إلى ١٤ دوكا. وسوف تقفز الأسعار قفزا الآن لأن أربع سفن فرنسية وصلت إلى طرابلس التي ترسو فيها أكثر من ثمانى سفن أخرى تشتري السلع بالسعر المعروض. وسوف ينكسر جميع التجار.

٢- على النقيض، أعلن سفير البندقية في الاستانة في شهر تشرين الثاني سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م أى بعد انتهاء الحروب البحرية البرتغالية العثمانية، أن سفن البندقية الضخمة أفلعت من طرابلس إلى أوروبا. وأشار تقرير من البندقية أيضا (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) أن ٥٠٠٠

عامل يعملون في الحياكة في مدينة حلب . وتعتبر هذه الأقوال عن انتعاش حركة التبادل التجارى عن طريق الخليج بعد زوال أسباب توقفها ، أى الحروب .

٣ - أخيرا إزدهرت الحركة التجارية في البحر الأحمر في أثناء الحرب العثمانية الصفوية في البر والحروب العثمانية البرتغالية في البحر وعند مدخل الخليج العربى أو فيه .

وموانئ التجارة الدولية كثيرة في البحر الأحمر ، منها جدة وسواكن والطور والسويس ، إلا أن أهمها جدة . فمن جدة تنطلق السفن والزوارق محملة بالسلع الى الطور . وتنقل القوافل تلك السلع الى القاهرة في غضون ٩ أو ١٠ أيام . ويصل ألف الى ألفى طن من التوابل سنويا الى جدة في شهر أيار وشهر تشرين الثانى ، وتشحن كلها الى القاهرة فالأسكندرية حيث تباع الى الأوروبيين .

(١) ففى عام ٩٦٢هـ / ١٥٥٤م . اشترى البنادقة وحدهم ٦٠٠ بالة توابل أى ٣٠٠ طن أو ما يعادل نصف مبيعات مصر .

(٢) وبين عامى ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م و ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م ، قدر تقرير أحد جواسيس البرتغال حركة بيع وشراء الفلفل ما بين ١٢٥٠ و ١٥٠٠ طن .

(٤) وفى شهر أيار سنة ١٥٦٥ ، ذكر تقرير سفير البندقية في القاهرة أن

١٠٠٠ طن من الفلفل وصلت الى جدة ولا بد أن يضاف إليها ما يأتى في تشرين الثانى من جوزرات وكاليكوت . ولا تتضمن هذه الأرقام ما يشحن عن طريق الخليج العربى في أيام السلم . لذلك يستنتج العارفون أن نصيب الطريقين العربيين من شحن السلع يعادل ما يشحن عن طريق المحيط الأطلسى الى لشبونة ، بل يزيد عليه .

ولا تشتمل هذه الأرقام أيضا على العقاقير الطبية (الأفيون ، البلسم) والحريز والطور والحجارة الكريمة واللاآء وغيرها ، ولا على السلع المنقولة من البحر المتوسط الى بحر الهند .

ففى عام ١٥٦١ ، انطلقت سفينة اسمها كروس ، حملتها ٥٤٠ طنا من البندقية الى المشرق مشحونة بالنحاس الخام والأجواخ والمنسوجات الصوفية والحريرية والمرجان والعنبر والطرف والورق والنقود ، وعادت بحمولة من الفلفل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والبخور والصمغ العربى والسكر وخشب الصندل .

٤ - نتائج إزدهار تجارة الطريقين العربيين :

ترتبت على إزدهار الطريقين العربيين ثلاث نتائج كبرى .
(١) النتيجة الأولى : تضاعف وصول

ج. دوام عبور السفن المحملة بالسلع في الخليج والبحر الأحمر :

مهما يكن ، بقي الطريقان العربيان ، طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر ، يستقبلان السفن المحملة بشتى السلع من عام ١٥٨٠ الى آخر القرن السادس عشر ، ويستدل على ذلك من الوثائق التي تتحدث عن النشاط التجاري في منافذ البحر المتوسط ، التابع لنشاط الطريقين .

١ - انتعاش تجارة بلاد الشام تبعا لانتعاشها في الخليج العربي :

(١) فوثائق مرسيلية لصيف عام ١٥٧٨ تذكر شراء جوز الطيب من سورية .

(٢) وتشير احدى رسائل تاجر من تجار حلب ، محررة في شهر كانون الثاني سنة ١٥٧٩ ، الى شحن سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالسلع من طرابلس الشام ، في حين تتأهب سفينة كبيرة ثالثة لترسو في بندرها في الشهر ذاته . وانخفضت أسعار الأجواخ في طرابلس لكثرة ما وصل اليها من أوربة .

(٣) ونصت رسالة من تاجر حلبى آخر تاريخها ١٢ أيار سنة ١٥٧٩ ، على وصول قافلة جلبت ٢٠٠ حمل من الحرير و ٢٥٠ حملا من التوابل يصحبها تجار فرس ومسيحيون .

(٤) وفي ٤ تموز ١٥٧٩ أيضا ، ورد في

الفلل والتوابل الى لشبونة . ففي شهر تشرين الثانى سنة ١٥٦٠ قال السفير البرتغالى في رومة : لا عجب إذا قلت كميات التوابل الواصلة الى لشبونة ، لأن مقادير هائلة منها وصلت الى الأسكندرية . وفي شهر نيسان سنة ١٥٦١ سر السفير الفرنسى في البرتغال لندرة التوابل في لشبونة ، وقال : إذا استمر شحن

التوابل الى البحر الأحمر على هذا المنوال ، فسوف تفرغ مخازن ملك البرتغال الذى يخشى هذا الاحتمال بعد أن حارب مدة طويلة للملأها .

(٢) النتيجة الثانية : فقدت التوابل من الأسواق التى تتعامل مع البرتغال . وأخذ تجارها يفتشون عن مصادر تموين في لشبونة .

(٣) النتيجة الثالثة : فى أواخر سنة ١٥٦٣ ، جرت مفاوضات صلح بين البرتغال والسلطان سليمان القانونى الذى عدل عن التورط فى التوترات السائدة بين الهنود والبرتغاليين فى الهند ، فخلع خلعا على السفراء

البرتغاليين مع الباب العالى . وطلب منه حق إدخال السلع الهندية الى القاهرة والأسكندرية وسورية عن طريق البحر الأحمر معفاة من الرسوم . فرفض طلبه ولم يمنح هذا الامتياز . فهل كان فى نية البرتغاليين العدول عن سلوك الطريق الغربية ؟

قائمة سلع مشتريات سفن
توسكانية : ١٧ قطعة أبنوس (٢٠٥
ليبرة) ، سكر (٩٣٦ ليبرة) ، بالة
حرير صغيرة (١٠٢ ليبرات) ، بخور
(١١٨٥ ليبرة) ، جوز طيب (٢٣٦
ليبرة) ، فلفل (٧٧٠٦ ليبرات) ..
(٥) وفي شهر آب سنة ١٥٧٩ ، أعلن
قنصل البندقية في سورية عن سفر
سفينتين كبيرتين بندقيتين ،
مشحونتين بالحرير والتوابل الى
بلادها .

٢ - أزمة نشاط تجارى عابرة في بلاد الشام :

لكن حصلت أزمة تجارية في عامي
١٥٨٢ و ١٥٨٣ .
(١) ففي كانون الأول سنة ١٥٨٢ ،
تحدث إحدى رسائل حلب عن صغر
حجم الأعمال التجارية وعن خسائر
عقودها الفادحة ما عدا الحراير .
(٢) وفي شهر تموز سنة ١٥٨٣ ،
ساءت الأعمال حتى فقدت رؤوس
الأموال ٨٪ من قيمتها . ولوحظ وجود
الأزمة ذاتها في الأسكندرية .

٣ - تجدد النشاط التجارى في بلاد الشام :

إلا أن الأوضاع تبدلت بعد سنة
١٥٨٣ ، وعاد النشاط التجارى الى
سابق عهده .
(١) فقد قال أحد تجار مرسيلية المقيم
في حلب ، في شهر نيسان سنة
١٥٨٣ ، أن أسعار الفلفل إرتفعت

كثيرا رغم وجود كميات كبيرة منه .
(٢) وذكر جوهن الدريد سنة ١٥٨٣
أن التجار الأوروبيين يقصدون
طرابلس بكثرة ، وأن حلب مزدهمة
بالسكان .

٤ - النشاط التجارى في البصرة والأسكندرية :

وشاهد جوهن الدريد نفسه في
العام ذاته ١٥٨٣ ، ٢٥ غرابا عثمانيا
في البصرة ، وقال أن عدة سفن تأتى
اليها من هرموز شهريا ، تتراوح
حمولتها بين ٤٠ و ٦٠ طنا ، محملة
سلعا هندية تشمل التوابل والعقاقير
والنيلة وأقمشة كاليكوت . وعندما
رجع الى حلب ، سافر في قافلة مؤلفة
من ٤٠٠٠ جمل تنقل التوابل والسلع
الأخرى . كذلك كان بالامكان
الحصول على جميع أنواع التوابل من
الأسكندرية .

٥ - النشاط التجارى في هرموز :

وبين سنة ١٥٨٤ و ١٥٨٧ ، رفع
تقرير الى فيليب الثانى ملك أسبانية
والبرتغال وخليفة شارل الخامس ،
وصف أوضاع هرموز في أواخر القرن
السادس عشر على الوجه التالى :
«تستقبل هرموز جميع المهاجرين ،
وتتعاطى جميع أنواع التجارات
والتهريبات . ويأتى اليها البنادقة
والأرمن والعثمانيون والبرتغاليون
المرتدون ، ويذهبون الى الأمبراطورية
العثمانية حيث تخدم معارفهم الثمينة

عن الهند تجارة التهريب وتجارة التوابل واللؤلؤ والراوند وصمغ جاوه وخشب الصندل باتجاه الغرب ، والسلع المهربة كالذخائر والأسلحة الحديثة باتجاه الشرق» .

٦ - النشاط التجارى فى البحر الأحمر : جدة :

ويبدو أن نشاط التجارة فى البحر الأحمر كان لا يقل عن نشاطها فى الخليج العربى ، خاصة فى بندر جدة .

(١) فى سنة ١٥٨٦ ، بلغت الرسوم الجمركية ١٥٠٠٠٠ دوكا نصفها للسلطان ونصفها لشريف مكة . وكانت ٤٠ الى ٥٠ سفينة ترسو فى جدة سنويا ، وتجلب اليها التوابل .
(٢) وفى سنة ١٥٨٧ ، كانت سفن شمطرة تسافر مباشرة الى جدة .
(٣) ثم انتقل التجار الذين كانوا يتعاملون مع جدة وهموز من الديو وجو الى شيول وكان ذلك سنة ١٥٩٠ .

خاتمة

الخليج ، وتحالفوا مع شاه فارس عباس الأول وقضوا على البرتغاليين ، فساعدوا الشاه الفارسي على احتلال هرموز ، وصفوا مواقعهم الأخرى . وثبت العثمانيون هيمنتهم على العراق ، وقسموه الى ولايات عثمانية ، منها ولاية البصرة التي شملت عشرين سنجقا ، وامتدت نظريا حتى رأس مسندم

ولعبت عمان دورا أساسيا في الاجهاز على المواقع البرتغالية في أراضيها . وهكذا طوى التاريخ الحقبة البرتغالية ، وبدأت الحقبة الأوروبية وإقامة ركائز الاستعمار الأوروبي في المحيط الهندي وفي أنحاء العالم .

فشل قانصوه الغوري وسليمان القانوني في ابعاد البرتغاليين عن الخليج العربى والبحر الأحمر في القرن السادس عشر . لكن نجحت أعمالهم الحربية والسياسية في إنهاك الفرنج ماديا ومعنويا رغم محافظتهم على مراكزهم في الخليج العربى . وعجز البرتغاليون عن منع تدفق السلع الشرقية على منافذ البحر المتوسط عبر الطريقين العربيين . ومع اطلالة القرن السابع عشر ، سادت أوضاع دولية جديدة في بحر الهند وفي الخليج العربى . شكلت خطرا حقيقيا على المصالح الاقتصادية العربية ، بل مثلت بداية الاستعمار الأوروبى . فقد جاء الانكليز والهولنديون الى

مراجع مختارة

مراجع عربية

- أحمد ، محمد عبد العال ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ .
الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، ١٩٨٠ .
البازعري ، الممالك ، بيروت ، ١٩٦٧ .
سرهنگ ، اسماعيل ، تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ١٩٨٨ .
قلعجي ، قدرى ، الخليج العربى ، بيروت ، ١٩٦٥ .
النهرالى ، قطب الدين محمد بن أحمد ، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة المسمى البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض ، ١٩٦٧ .

مراجع أجنبية

- Braudel, F., La Me'diterrane'e et le Monde Me'diterrane'en a l'e'poque de Philippe II, Paris, 1982.
Da mes, M.L., The Book of Duarte Barbosa, Nendeln, 1967.
Kammerer, A., La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite', 3 vols., Le Caire, 1947-1949.
Mills, J.V.G., The Overall Survey of the Ocean's Shores (1433), Cambridge, 1970.
Planhol, Xavier de, Les Fondements Ge'ographiques de l'Histoire de l'Islam, Paris, 1968.
Yule, Sir Henry, Cathay and the Way Thither, Nendeln, 1967.

